تمهيد

القرآن الكريم نص موثَّق

اللغة العربية لغة أصيلة، ليس لها طفولة ، وليس لها شيخوخة، لأننا استقبلناها منذ العصر الجاهلى قوية التراكيب ، رائعة الأساليب. وكانت هذه اللغة مرآة صافية للشعر الجاهلى. والشعر الجاهلى بشهادة الناقدين جزالة فى اللفظ وفخامة فى المعنى ، وقدرة فى التصوير ، وروعة فى التعبير .

ولقوة هذه اللّغة المتمثلة فى الأدب الجاهلىّ شعره ونثره كانت مؤهلة لأن تستقبل القرآن الكريم بجلال بيانه ، وروعة أساليبه ، وسموّ معانيه . وواجهها القرآن الكريم بالتّحدى ، فسُقط فى يدها ، واستسلمت لهذه القوة البلاغية ، ووضعت اللغة العربية بعد نزول القرآن الكريم نفسها فى حقله لتنبت بأذن ربها نباتا حسنًا يؤتى أكله فى كل زمن ، وفى كل عصر تحت ظلال القرآن الكريم، وفى ضوء شمسه المشرقة .

والقرآن الكريم نص موثق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

وتوثيق النص القرآنى حقيقة لا يختلف فى مجالها اثنان ، لأن هناك جهدًا كبيرًا قام به الرّسول صلى الله عليه وسلم وصحبه من أجل توثيق هذا النص العظيم الذى انفرد من بين الكتب المقدسة التى سبقته بهذا التوثيق المكين الذى وصل إلى الذروة ، وبلغ القّمة ، وهذا سرّ خلوده، وأحد مفاتيح إعجازه .

نعم ، سجل القرآن الكريم فى مصحف ظل « ينقله أهل المشرق والمغرب من أمثالهم جيلاً جيلاً ، لا يختلف فيه مؤمن ولا كافر منصف ... لا يشكّون ولا يختلفون فى أنّ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب أتى به ، وأخبر أن اللّه عز وجل أوْحى إليه ، وأنّ من اتبعه أخذه عنه كذلك ، ثم أُخذ عن أولئك حتى وصل إلينا »[1] .

ومراحل توثيقه فى عهد الرسول عليه السلام مرّت فى خطوات خمس

---

(١) انظر الفصل فى الملل والنحل لابن حزم ٢ ، ٨١

١ - نزول القرآن منجّمًا :

إن نزول القرآن الكريم منجّمًا كان لأسباب عدّة، ذكرها المفسرون ، وأهم هذه الأسباب يرجع إلى توثيق النّص القرآنى ، وإحكام حفظه ، لأنّ نزوله مفرّقًا أو مجزّأ يساعد على حفظه وتثبيته فى الصدور .

ومن المعروف أن القرآن الكريم نزل فى عشرين أو ثلاث وعشرين على اختلاف فى الأقوال ، وهى مدّة طويلة تكفى لتثبيته من كثرة ترديده ، وتلاوته مصداقاً لقوله تعالى «وَقُرْآناً فَرَقْناهُ لتقْرأه على النّاس على مُكْثٍ ونزّلناه تنزيلاً» (١) .

٢ - كتابته حين النزول :

هذه هى الخطوة الثانية فى التوثيق ، فقد كان للرسول عليه السلام كتّاب وحى يتلقفون ما ينزل عليه ، فيكتبونه فى وعى وإدراك، ودقّة وإتقان، وقد بذل هؤلاء الكُتّاب أنفسهم كما يقول ابن الجزرى فى «النّشر»: «وتلقوه من النبى عليه السلام حرْفًا حرفا ، لم يهْملوا منه حركةً ولا سكوناً ، ولا إثباتاً ولا حذفًا ، ولا دخل عليهم فى شىء منه شكّ ولا وهْم»(٢) .

وقد تمثّل حرْص النبىّ صلى الله عليه وسلم على كتابة القرآن حين نزوله على هذا المستوى الكبير فى الدّقة والإتقان حين منع كتابة شىء عنه سوى القرآن حتي لا يختلط به ماليس منه، يدل على ذلك ما رواه أبو سعيد الخدرى أن النبى عليه السلام قال: «لا تَكْتُبوا عنى شيئاً سوى القرآن ، فمن كتب عنّى شيئاً سوى القرآن فليْمحُه»(٣) .

٣ - التّنافس الكبير على حفظ القرآن الكريم ، وكثرة تلاوته .

هذا التنافس كان خطوة ثالثة فى توثيق النّصّ القرآنى يدلّ على ذلك ما نقله الرواة أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن عمرو بن العاص : «اقرأ القرآن فى كذا ليلة يدعوه إلى التّيسير ، وهو يقول : إنى أطيق أكثر من ذلك إلى أن قال له : اقرأ القرآن فى ثلاث ليال» (٤) .

---

(١) الإسراء / ١٠٦ .
(٢) النشر فى القراءات العشر ١ ٦
(٣) تقيد العلم للخطيب البغدادى ٢٩ .
(٤) مقدمتان فى علوم القرآن ٢٧

٤ والخطوة الرابعة فى التوثيق أنّ الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يعرضون ما يحفظونه على رسول الله صلى الله عليه وسلم . ونذكر من هؤلاء الصحابة ابن مسعود الذى يقول : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اقرأ علىّ ففتحت سورة النساء، فلما بلغت : « فكيف إذا جئنا من كلّ أُمّة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا» [١] رأيت عينيه تذرفان من الدمع ، فقال : حسبك الآن » [٢] .

٥ والخطوة الأخيرة فى التوثيق هى أن جبريل كان يعارض النبّى عليه السلام بالقرآن كلّ سنة فى شهر رمضان ، ففى صحيح البخارى ، قال مسروق : عن عائشة عن فاطمة رضى الله عنهما : « أسرّ النبى صلى الله عليه وسلم إلىّ أن جبريل كان يعارضنى بالقرآن كل سنة ، وأنه عارضنى العام مرتين ، ولا أراه إلاّ حضور أجلى»[٣].

رأى خطير فى مجال التوثيق ونقده :

يرى المستشرق « أرثر جفرى » فى مقدمته لكتاب : « المصاحف » أن « الرأى الشائع فى أن القرآن الكريم كتب فى عهد النبى عليه السلام لا يقبله المستشرقون لأنه يخالف ما جاء فى أحاديث أخرى أنه قبض صلى الله عليه وسلم ولم يجمع فى القرآن شىء»[٤].

ويميل أرثر جفرى إلى هذا الرأى بل يؤيده حيث يقول : وهذا يطابق ما روى من خوف عمر بن الخطاب وأبى بكر الصديق لما استحر القتل بقُرّاء اليمامة ... إلى أن يقول. وسبب الخوف هو قتل القُرّاء الذين كانوا حفظوا القرآن. ولو كان القرآن قد جمع وكتب لما كانت هناك علّة لخوفهما » [٥]

وهذا الرأى الاستشراقى لا يستند إلى دليل لما يأتى

١ ماقيل من أن النبى عليه السلام قبض ولم يجمع من القرآن شىء ليس المراد منه أن القرآن لم يكن مكتوبا حين ذاك ، بل المراد أنه لم يجمع فى مصحف

---

(١) النساء ٤١ (٢) غاية النهاية ١ ٤٥٨

(٣) انظر البخارى فى فضائل القرآن ، والبرهان فى علوم القرآن ١ ٢٣٢

٤ انظر مقدمة المصاحف لأبى داود ٥

٥ انظر مقدمة المصاحف

٢ - الروايات الموثقة المتعددة التى تثبت أن القرآن الكريم : كان مجموعاً على عهد الرّسول عليه السلام ، وأنه ما نزلت آية الا وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلّم من يكتب له أن يضعها فى موضع كذا من سورة كذا » (١) .

٣ - وخوف أبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب حين استحرّ القتل بالقراء يوم اليمامة الاستدلال به غير موفق، لأن خوف الشيخين الجليلين ناشىء من زيادة التّحرّى، والمبالغة فى الحرْص على القرآن وحفظه ، وذلك لأنّ طريقة أداء هذا المكتوب لا تتأتى إلا عن طريق التلقين والرواية ومن ثَمّ نشأ خوف الخليفتين الجليلين من أن يموت القُرّاء، فتتعثّر طريقة الأداء » (٢) .

٤ - وأكبر ردٍّ على هذا الرأى الاستشراقى ما ردّ به المستشرق الأمريكى (ف - بودلى) على رأى المستشرق أرثر جفرى وأتباعه ، فقد قال فى مجال توثيق النص القرآنى ما نصه :

« بين أيدينا كتاب معاصر فريد فى أصالته ، وفى سلامته ، لم يشك فى صحّته كما أنزل أىّ شك جدّى ، وهذا الكتاب هو القرآن ، وهو اليوم كما كان كتب لأول مرة تحت إشراف محمد . وعلى الرغم من أن الأفكار قد دوِّنت فى الرّقاع وسعف النخل، والعظام فى لحظات غريبة ، فالسّور ، والأيات الأصلية قد حفظت ..

وهذا الكتاب ليس مجموعة أحاديث أو تقارير يفترض فيها أن محمداً قد قالها فهى نفس الآيات التى أملاها بنفسه يوماً بعد يوم ، وشهراً بعد شهر خلال حياته ..

وأن الحسنة الوحيدة فى طريقة (زيد) أنها كانت أمينة فوق الشبهات فلم يفعل شيئاً ليضيف فقَرات ، أو يضع جُمَل رَبْط ، أو يحذف ، لقد عمل بإخلاص لا يمكن تصوره.. إلى أن يقول : والمهم هو أن القرآن هو العمل الوحيد الذى عاش ... دون أن يبدَّل فيه ، ولا يوجد شىء يمكن أن يقارن بهذا أدنى مقارنة فى الديانة اليهوديّة : ولا فى الديانة المسيحية » (٣) .

---

(١) مقدمتنان فى علوم القرآن / ٥ .

(٢) انظر : القرآن الكريم وأثره فى الدراسات النحوية / ٥ للدكتور عبد العال سالم مكرم .

(٣) انظر : تاريخ القرآن ، وغرائب رسمه ، وحكمه لمحمد طاهر بن عبدالقادر الكردى / ٦٨ ، ٦٩